كتاب الاعتبار

"لأسامة بن منقذ"

رسالة لنيل درجة الماجستير

إعداد : سامر محمد البارودي

كانت الأمة الإسلامية إبان الحروب الصليبية أحوج ما تكون إلى من يوحد صفوفها، ويضم شتاتها، ويعيد إليها قوتها ومنعتها في عصر آلت فيه أحوالها إلى الفوضى والاضطراب، حتى غدت مسرحا للصراعات الدامية فيما بينها، وكانت دول الإفرنج تتربص بالمسلمين مثل هذه الفرصة السانحة، فاستغلت ضعف الأمة واضطراب أحوالها، وسعت لبسط نفوذها على أقطارها مدفوعة بحقد صليبي متأجج، ومتناسية خلافاتها كلها، وأخذت تحاول تمزيق العالم الإسلامي بالقوة حينا، وبإثارة الفتن أحياناً أخرى، ولكن ما لبث المسلمون أن أفاقوا من غفلتهم على الواقع المرير، فأخذوا يجمعون الصفوف، ويلمون الشعث، ويسعون إلى إعداد أمتهم ورفعها إلى مستوى المعركة التي فرضت عليها.

وكان لابد لتلك الأحداث والحروب أن تستثير الشعراء والأدباء، وأن تخلف أدباً متنوعاً، وإن كان متفاوتا بين الجودة والضعف، وقد اصطلح على تسمية هذا الأدب بأدب الحروب الصليبية.

وكان من أجمل ما وصل إلينا من هذا الأدب كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، الذي يعد أول كتاب في أدب السيرة الذاتية في العالم، وبدا وكأنه مسرح واقعي للجهاد والنضال، ودليل هاد للفرسان الأبطال، وقد دارت ذكريات أسامة الذي كان من أبطال الحروب الصليبية وفرسانها حول أحداث جسام رآها بعينه أو شارك فيها بنفسه، كما خاض كثيرا من معارك الجهاد والنضال، ثم سجل ذلك كله بأسلوب قصصي شائق وسيرة فنية فريدة، وكان الدافع الرئيس إلى تأليف هذا الكتاب لدى أسامة هو رغبته في أن يستخلص العبرة والعظة من مذكراته التي تجمع بين الصدق والطرافة وعفوية الأسلوب.

ولقد كان ما قدمته من أول الدوافع التي حدت بي إلى اختيار هذا الكتاب ليكون موضوعاً أتقدم به لنيل درجة الماجستير، ولاسيما أنه ليس من اللائق أن يدرس كتاب الاعتبار عدة دراسات أدبية في مئات الصفحات وبلغات مختلفة، ثم لا تكتب عنه دراسة عربية، توضح مكانته بين السير العربية والأجنبية، وتدرس أسلوب عصره ومصطلحاته، وتظهر منزلته في نظر الدارسين العرب وغيرهم، ويمكن أن أضيف إلى ما تقدم أن كتاب الاعتبار قد كتب على هيئة سرد للقصص البطولية ولمناحي الحياة المختلفة مما يدعو الدارسين إلى أن يتجاوزوا ما فيه من الإمتاع للتركيز على ما فيه من فوائد جمة. أهمها أنه يعد وثيقة تاريخية لحقبة من أهم حقب الإسلام، كما أنه صورة واقعية لأحوال المسلمين الصليبيين تظهر بصورة صادقة المفارقات العجيبة بين المسلمين في رفعة حضارتهم وبين الصليبيين في بدائيتهم وانحطاطهم.

ولقد كان مما سهل علي المضي في هذا البحث أن الكتاب قد حقق تحقيقاً جيدا، وإنما وجدت بعض الصعوبة في تحديد أسس البناء الفني للسيرة الذاتية والملامح الفنية لها، إذ تفاوتت آراء الدارسين فيها على قلتها، بالإضافة إلى أنها في أغلبها دراسات نظرية لم تتناول بالتطبيق سيرة معينة، ولم تسلط الأسس الفنية عليها، ولقد بذلت جهدا مضنياً في الحصول على آراء المستشرقين حول كتاب الاعتبار فقد كانت مبثوثة في عدد من الكتب والدوريات بلغات متعددة.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أقسمه على خمسة فصول مع تمهيد تحدثت فيه عن إسهام بني منقذ في الحروب الصليبية، ثم ألحقت بهذه النبذة آثار أسامة المطبوعة والضائعة وقد بلغت ما يقارب عشرين كتاباً كانت نتيجة للتربية العلمية القويمة.

وقد خصصت الفصل الأول للحديث عن كتاب الاعتبار من حيث دواعي تأليفه، وتاريخ التأليف، وتوثيق نسبة الكتاب إلى أسامة، ومخطوطته، ثم طبعاته ومصادره التي ساق منها حوادث كتابه وقصصه.

وأما الفصل الثاني فقد كان لدراسة الجوانب الموضوعية لأن كتاب الاعتبار يوضح كثيرا من أطراف الحياة الإسلامية والصليبية في ذلك العصر سواء منها الجانب السياسي أو الديني أو الاجتماعي أو الثقافي أو التربوي أو الحضاري.

وخصصت الفصل الثالث لدراسة فن السيرة الذاتية، إذ تناولت جوانب شخصية أسامة من طفولته إلى أواخر شيخوخته وفق تطورها الزمني، كما تناولت أسلوب التقرير والسرد والنزعة القصصية والتشويق في أسلوب الكاتب والواقعية والمبالغة في سرد الحوادث. وموقف الكاتب إزاء العقبات التي واجهته والأزمات التي وقع فيها. كما تناولت الحديث عن التداخل الزمني في أحداث الكتاب والاستطراد فيها، فأسامة الذي كان يكتب سيرته عن طريق الاسترجاع بعد أن وافى التسعين قد أغفل قاصداً التواتر الزمني لأحداث سيرته تبعاً لهدف الكتاب وهو جمع قصص الاعتبار والاتعاظ المؤثرة.

فقد استطعت تأكيد الرأي الذي يعد سيرة أسامة بن منقذ

أول سيرة ذاتية في العالم كله، إذ إن أسامة قد سبق بيبس الإنجليزي وريتز الفرنسي صاحبي أقدم مذكرات في الأدب الغربي بخمسة قرون.

وأما الفصل الرابع فقد خصصته للدراسة الفنية من حيث الألفاظ واستعمال الدخيل والمعرب والعامي، كما أحصيت المصطلحات الحربية الواردة في الكتاب بعد شرحها، ثم تناولت الحديث عن التراكيب من حيث بناء الجملة وعفوية اللغة، وأوضحت سمات الحوار الذي كان يميل إلى العامية، مما جعلني أتحدث عن لغة الحياة اليومية كما تبدو في الكتاب.

وقد جعلت الفصل الخامس والأخير للحديث عن منزلة الكتاب في نظر بعض الدارسين المستشرقين والعرب الذين أكدت آراؤهم مجتمعة الأهمية الكبيرة التي يحتفظ بها كتاب الاعتبار. فهو في نظرهم وثيقة تاريخية مهمة، وسيرة فنية فريدة تعالج كثيراً من النواحي الاجتماعية لأهل ذلك العصر، وتلقي الضوء على الحياة العامة في الشام ومصر في أسلوب قصصي جذاب ولغة سهلة دارجة، مع براعة في تقديم شخصيات إنسانية إيجابية، بالإضافة إلى تمثيل هذه السيرة للفروسية الفريدة، والرجولة الفذة لدى الجندي المسلم.

تم ألحقت بالكتاب خاتمة وسرداً للمصادر والمراجع التي أفاد منها هذا البحث.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأستاذي الدكتور عبدالقدوس أبو صالح المشرف على الرسالة الذي لم يأل جهداً في توجيهي ونصحي لما يخدم هذه الدراسة الأدبية.

الذاتية، إذ تناولت جوانب شخصية أسامة من طفولته إلى أواخر شيخوخته وفق تطورها الزمني، كما تناولت أسلوب التقرير والسرد والنزعة القصصية والتشويق في أسلوب الكاتب والواقعية والمبالغة في سرد الحوادث. وموقف الكاتب إزاء العقبات التي واجهته والأزمات التي وقع فيها. كما تناولت الحديث عن التداخل الزمني في أحداث الكتاب والاستطراد فيها، فأسامة الذي كان يكتب سيرته عن طريق الاسترجاع بعد أن وافى التسعين قد أغفل قاصداً التواتر الزمني لأحداث سيرته تبعاً لهدف الكتاب وهو جمع قصص الاعتبار والاتعاظ المؤثرة.

فقد استطعت تأكيد الرأي الذي يعد سيرة أسامة بن منقذ أول سيرة ذاتية في العالم كله، إذ إن أسامة قد سبق بيبس الإنجليزي وريتز الفرنسي صاحبي أقدم مذكرات في الأدب الغربي بخمسة قرون.

وأما الفصل الرابع فقد خصصته للدراسة الفنية من حيث الألفاظ واستعمال الدخيل والمعرب والعامي، كما أحصيت المصطلحات الحربية الواردة في الكتاب بعد شرحها، ثم تناولت الحديث عن التراكيب من حيث بناء الجملة وعفوية اللغة، وأوضحت سمات الحوار الذي كان يميل إلى العامية، مما جعلني أتحدث عن لغة الحياة اليومية كما تبدو في الكتاب.

وقد جعلت الفصل الخامس والأخير للحديث عن منزلة الكتاب في نظر بعض الدارسين المستشرقين والعرب الذين أكدت آراؤهم مجتمعة الأهمية الكبيرة التي يحتفظ بها كتاب الاعتبار. فهو في نظرهم وثيقة تاريخية مهمة، وسيرة فنية فريدة تعالج كثيراً من النواحي الاجتماعية لأهل ذلك العصر، وتلقي الضوء على الحياة العامة في الشام ومصر في أسلوب قصصي جذاب ولغة سهلة دارجة، مع براعة في تقديم شخصيات إنسانية إيجابية، بالإضافة إلى تمثيل هذه السيرة للفروسية الفريدة، والرجولة الفذة لدى الجندي المسلم.

تم ألحقت بالكتاب خاتمة وسرداً للمصادر والمراجع التي أفاد منها هذا البحث.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأستاذي الدكتور عبدالقدوس أبو صالح المشرف على الرسالة الذي لم يأل جهداً في توجيهي ونصحي لما يخدم هذه الدراسة الأدبية.